المحاضرة الأولى الحضارة الإنسانية مفهومها ومجالها

تمهيد

يعتبر مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم صعوبة في التحديد، وذلك بفعل التطور الدلالي الذي حظي به عبر تاريخ الحضارة نفسها، ولعل من أهم أسباب الاختلاف في تعريفها أيضًا ما يرجع إلى الخلفية الفكرية لصاحب كل تعريف، وكذلك تكوينه العلمي وزاده المعرفي. فالمؤرخ، والأنثربولوجي، وعالم الاجتماع، واللغوي، وعالم النفس، كلٌّ يعرفها انطلاقًا من أرضيته الفلسفية ومنظوره المعرفي الذي ينظم أفكاره.

ونتيجة لحيوية التنقيب والبحث في حقل الدراسات الحضارية، ظهرت تعريفات متعددة ومتنوعة لظاهرة الحضارة .كما أن هناك تعريفات ولدت ضمن إطار الوعي العقدي الغربي وأخرى صيغت استجابة للوعي العقدي التوحيدي. ولذلك نحاول تناول مفهوم الحضارة من الوجهتين؛ اللغوية، والاصطلاحية، للتمكن من تحديده بما يجعله واضحًا للقارئ.

أ- في اللغة العربية: الحضارة بكسر الحاء وفتحها تعني الإقامة في الحضر، لأن مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي في الحضر[1]. ومعناها ضد غابَ والحاضرة خلاف البادية .[2] والحضور نقيض المغيب والغيبة: حَضَرَ يَحْضُرُ حُضوراً وحضارة، والحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي. والحاضر: المقيم في المدن والقرى، والبادي: المقيم بالبادية، وفلان حضري وفلان بدوي. و الحِضارة: الإقامة في الحضر.

فالحضارة في اللغة كما رأينا ترتبط بالحضر، والعمران، أي أن المصطلح من ناحية اللغة العربية ذاتها يحمل المعنى الاجتماعي، فإذا سكن الناس واستقروا نشأت بينهم صلات اجتماعية أكثر، وارتبطت مصالحهم، ونشأت بينهم سبل التعاون، واتجهوا إلى بناء المدن والإبداع والانتظام والتنظيم.

فالحضارة في جذرها اللغوي تعنىَ وتُركز على الجانب الاجتماعي، وكأن اللغة تشير إلى أن الحضارة مفهوم اجتماعي منذ نشأته، كما أنها لا تكون إلا حيث توجد علاقات اجتماعية متبادلة بين الناس تظهر فيها معاني التعاون والتنظيم والانتظام في إطار مكاني محدد هو المدينة، ولعل هذا فيه إشارة لاهتمام النبي -صلى الله عليه وسلم- بتسمية (يثرب) باسم (المدينة)، بما يتضمنه لفظ المدينة من قيم اجتماعية وحضارية بعيدة الأثر في النفس الإنسانية.

---

[1]- إبراهيم أنيس و آخرون ، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، ج1 ص180.

[2]- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الفكر بيوت لبنان، 1983، ج2،ص10.

ب – في اللغات الأروبية

أما مصطلح "الحضارة" في اللغات الأوربية، واللغة الإنجليزية بخاصة، فمشتق من اللاتينية، فلفظ Civilization لغويًّا يرجع إلى الجذر (civites) بمعنى مدينة، و (Civis) بمعنى ساكن المدينة، أو (civilis) بمعنى مدني أو ما يتعلق بساكن المدينة[1]. كما أنها تقرن أحيانا بمصطلح (Culture) التي في معناها اللاتيني تفيد الإنماء والحرث، واستمر مفهومها في حراثة الأرض وتنميتها، إلى نهاية القرن الثامن عشر، حيث إنها اكتسبت معنى يشير إلى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية، كما يذكر معجم أكسفورد، وتقابل في العربية مصطلح ثقافة[2].

وأقرب المعاني اللغوية المستعملة اليوم أن الحضارة: "مرحلة متقدمة من النمو الفكري والثقافي والمادي في المجتمع الإنساني.

أو هي: "مرحلة متقدمة من التقدم الاجتماعي الإنساني، أو هي ثقافة وطريقة حياة شعب أو أمة أو فترة من مراحل التطور في مجتمع منظم"

فمصطلح الحضارة في اللاتينية واللغات الأوربية أيضا يتضمن معنى المدينة، والاستقرار، والتنظيم الذي تقتضيه حياة المدينة، وكأن هناك تشابهًا في المعنيين اللغويين في كل من العربية واللاتينية، باعتبار أن الإنسان اجتماعي بطبعه حسب التعبير الخلدوني. أي أن النزوع إلى التجمع والتنظيم والانتظام فطرة إنسانية تحكم السلوك الإنساني في إطاره الجماعي، وأن التحضر مطلب إنساني متصل بالسعي الإنساني في مختلف العصور .

ج– تعريف الحضارة في الاصطلاح: أما من الناحية الاصطلاحية؛ فإن للحضارة تعاريف فعند ابن خلدون جاء في الفصل الخامس عشر بعنوان:(انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة):

"اعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول فإن الغلب الذي يكون به الملك إنما هو بالعصيبة و بما يتبعها من شدة البأس و تعود الافتراس و لا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه و اتساع الأحوال و الحضارة إنما هي تفنن في الترف و إحكام الصنائع المستعملة في وجوهه و مذاهبه من المطابخ و الملابس و المباني و الفرش و الأبنية و سائر عوائد المنزل و أحواله فلكل واحد منها صنائع في استجادته و التأنق فيه تختص به و يتلو بعضها بعضاً و تتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات و الملاذ والتنعم بأحوال الترف و ما تتلون به من العوائد..."

فالحضارة عند ابن خلدون تتعاقب على الأمم في ثلاثة أطوار :هي :

---

[1]– حمد محمود صبحي: في فلسفة الحضارة،مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ص3._

[2] –قسطنطين رزيق : في معركة الحضارة، ط4، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1981،ص 32–33.

1- طور البداوة فيمثل له ابن خلدون بمعيشة البدو في الصحاري ، والبربر في الجبال ، والتتار في السهول ، وهؤلاء عند ابن خلدون لا يخضعون لقوانين مدنية ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم.

2- طور التحضر :فهو طور تأسيس الدولة عقب الغزو والفتح ، ثم الاستقرار في المدن ، والتمكن من العلوم والصناعات ، وهذا الطور يقوم على الدين والعصبية وقد عقد ابن خلدون لهذا الفصل فصلاً آخر بعنوان – فصل في أن الدولة العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك ، أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق. "

3- طور التدهور :فيأتي في نهاية التحضر، بعد مرحلة الازدهار ، ووصول الناس إلى مرحلة الانغماس في الترف ، والتحلل في الأخلاق ، وتغير العادات إلى المناكر ، والتواضع عليها.

ويزيد ابن خلدون تعريفاً آخر للحضارة يسميها "سر الله في ظهور العلم والصنائع" وذلك في الفصل الذي يفسر فيه لماذا أن "حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم" مما يجعل من العلم والصناعة منتوجات حضارية كما أن الحضارة تصطبغ بذلك الطابع الاجتماعي العمراني، وهو ما سنجده مع مالك بن نبي لاحقًا، يقول ابن خلدون: "إن الصنائع من منتحل الحَضَرِ وإن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية.. والحضَرُ لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف [1]

ويعلل ابن خلدون ذلك برسوخ الحضارة في العجم، ويعني أساسًا (الفرس) الذين تحولوا إلى الإسلام، فيقول: "لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة وحاميتها وأولي سياستها [2]. فالحضارة عند ابن خلدون سر الله في وجود العمران والعلم، وإذا فقدت شروطها فإنها تنتقل إلى مكان آخر تتوفر فيه شروطها الموضوعية، ولعل تعبير ابن خلدون عن الحضارة بالسر، نستشف منه معنى القانون الذي يتحكم في انتقالها .

1- (تعريف ويل ديورنت*): "الحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من

[1]- ابن خلدون: المقدمة،ص 544.

[2]- ابن خلدون: المقدمة،ص 544.

* وليام جيمس ديورانت: فيلسوف وكاتب ومؤرخ أمريكي (1885-1981)

الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه، للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها"[1]..

2- تايلر (إدوارد تايلور) أنثروبولوجي بريطاني 1832-1917) يعرفها بأنها: "درجة من التقدم الثقافي، تكون فيها الفنون والعلوم والحياة السياسية في درجة متقدمة. أو بأنها ذلك الكيان المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات، والفنون والآداب، والقوانين والعادات، وجميع القدرات، والتقاليد الأخرى، التي يكسبها الإنسان، بصفته عضوًا في المجتمع. وهذا التعريف يركز على مشتملات الحضارة، بشكل عام.

3- (جورج باستيد الفرنسي) يعرفها: بأنها التدخل الإنساني الإيجابي، لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوبًا مع إرادة التمرد في الإنسان، وتحقيقًا لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته، ولإنقاص العناء البشري. والتعريف ينصب على الهدف من الحضارة بالدرجة الأولى.

وقد حاول بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين تعريف مصطلح الحضارة فاختلفوا من حيث سعة معناه أو ضيقه؛ فالمودودي[2]مثلاً يرى أن الحضارة هي: "مجموعة المبادئ والأفكار والأصول والتربية التي تثمر لوناً من ألوان الحياة الاجتماعية بمقوماتها المختلفة". أما الدكتور مصطفى علم الدين في كتابه (المجتمع الإسلامي في مرحلة التكوين) فيرى أن: "الحضارة هي نمط عيش مجموعة بشرية معينة في بيئة معينة يتمثّل في النظام الذي تعتمده المجموعة وفي سلّم القيم الاجتماعية التي تحدّدها لنفسها. وفق هذا التعريف، نستطيع القول: إن لكل "مجتمع" حضارته الذاتية المتميزة"[3]

وفي التعريفين معاً إغفال للجانب المادي، وهو ما استدركه الدكتور القرضاوي[4] حيث قال: "الحضارة لها جسم وروح، وجسمها يتمثل في منجزاتها المادية؛ كالمخترعات والمصانع والأبنية... وغيرها، وروحها يتمثل في مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد التي تتجسد في سلوك

---

[1]- ويل ديورانت قصة الحضارة ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد محي الدين صابر م1 ج1ص 03.

[2]- لمودودي هو: سيد أبو الأعلى المودودي، من أسرة مسلمة بالهند محافظة اشتهرت بالتدين والثقافة، أصدر مجلة "ترجمان القرآن" الشهرية المستقلة عام 1932م، وكان لها دور أساسي في الحركة الإسلامية في القارة الهندية بلغ عدد مؤلفات المودودي (70) مصنفاً ما بين كتاب ورسالة، وتوفي سنة 1399 هـ. ينظر: موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة (لا يوجد مرجع مقروء.(

[3]- المجتمع الإسلاميّ في مرحلة التكوين لمصطفى علم الدين: 6. ومصطفى علم الدين كاتب معاصر.

[4]- لقرضاوي هو: الدكتور يوسف القرضاوي، عالم فقيه مصري معاصر، أحد أعلام الإسلام البارزين في العصر الحاضر في العلم والفكر والدعوة والجهاد، في العالم الإسلامي مشرقه ومغربه. ينظر: موقع القرضاوي.

الأفراد والجماعات"[1] وهو بهذا يتقارب في المفهوم مع "غوستاف لوبون" الذي يرى أن الحضارة تشمل العقائد كما تشمل المنجزات العلمية والمادية [2]

أما مالك بن نبي، فينظر إليها من عدة جوانب؛ فهو تارة يعرفها من الجانب البنيوي (مركّزًا على بنية الحضارة وعناصر تركيبها)، وتارة من الجانب الوظيفي (مركزا على وظيفة الحضارة) باعتبارها تؤدي دورًا في المجتمع، وتارة يعرفها من جانب غايتها من حيث إنها غاية الحركة الاجتماعية في التاريخ . وبعبارة أخرى فهو يعطي التعريف التحليلي للحضارة الذي يبيّن كيفية تركيب الحضارة في عناصرها الأولية، ويعطي تعريفًا للحضارة من خلال دورها (وظيفتها) في التاريخ، كما يحدد حقيقتها الرسالية.

أما التعريف التحليلي؛ فإننا نجده يعرف الحضارة من الوجهة التحليلية (تحليل بنيتها) بالمعادلة الرياضية التالية: الحضارة= إنسان+تراب+وقت .وفي ذلك يقول ابن نبي: "حضارة = إنسان+تراب+وقت، وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أن مشكلة الحضارة تتحل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وإنما بأن نحل المشكلات الثلاثة من أساسها. [3]

فابن نبي يجمل أي جهد أو منتج حضاري في صورة هذا التفاعل الأولي بين عنصر الإنسان صاحب الجهد المنجز، وعنصر التراب بصنوفه التي هي مصدر الإنجاز المادي، وعنصر الزمن الذي هو شرط أساسي لأية عملية إنجازية يقوم بها الإنسان.

وابن نبي لا يكتفي بهذه العناصر التركيبية الأولية للحضارة فقط، بل يضيف إليها الفكرة المركبة، التي هي الفكرة الدينية (الدين) مركب القيم الاجتماعية، ويقوم الدين بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية[4] أي لا يكون فكرة مجردة بعيدة عن صياغة همّ جماعي وأداء اجتماعي مشترك.

هذه العناصر الثلاثة كما يرى ابن نبي تتفاعل فيما بينها بفعل الشرارة التي تحدثها الفكرة الدينية، وتتحقق في واقع تاريخي يقتضي وجود مجموعة من العلائق تحقق وحدة العمل التاريخي، هذه العلائق هي ما يسميه ابن نبي بشبكة العلاقات الاجتماعية [5]

---

[1]– ينظر: بحث " تأملات حول الإنسان ومستقبل الحضارة " للدكتور سيد حسين نصر: 30.

[2]– ينظر: كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر.

[3]– مالك ابن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، سوريا 1996،ص45

[4]– مالك ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص32.

[5]– مالك ابن نبي: ميلاد مجتمع ط3 ، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر ، دمشق، سوريا، 1986، ص27.

أما التعريف الوظيفي عند ابن نبي فهو:" إن الحضارة يجب أن تحدد من وجهة نظر وظيفية، فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور، أو ذاك من أطوار نموه".[1]

فهي ذلك العمل الاجتماعي الذي يقوم به المجتمع في سبيل توفير الضمانات التي تؤهل الفرد لممارسة دوره في التاريخ.

فمن وجهة الوظيفة التي تؤديها الحضارة فإن ابن نبي ينظر إلى الحضارة بمقدار ما تقدمه من الضمانات للفرد، تلك الضمانات التي يقدمها المجتمع لأي فرد من أفراده في مرحلة تاريخية معينة من مولده إلى مماته. أي إلى أن ينقضي وجوده الاجتماعي. هذه الضمانات هي بمثابة شروط ذات وجهتين مادية ومعنوية. وبعبارة أخرى: إنها في الواقع جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره. فالفرد يحقق ذاته بفضل قدرة وإرادة تنبعان من المجتمع الذي هو جزء فيه[2]. فالحضارة آداء اجتماعي لمجتمع ما في التاريخ.

ومن هذه الجهة (الوظيفية) فإن الحضارة هي:

1- شروط أخلاقية ومادية وهذا يجعل الحضارة خاضعة للتوازن الذي يحفظها من الانحراف. فإذا اختل جانب انحرفت الحضارة من هذا الجانب المختل.

2- عمل اجتماعي وهذا يشير إلى أهمية المجتمع وأسبقيته في إنجاز العمل الحضاري، وذلك من خلال تركيز ابن نبي على أهمية وجود عالم شبكة العلاقات الاجتماعية باعتبار أن الحضارة إنجاز يقوم به المجتمع بمجموع أفراده، ويتم في إطاره وبإرادته وإمكانه.

3- أن الإنسان الفرد يأخذ أهمية خاصة من خلال اعتبار الحضارة من الوجهة الوظيفية عملية تقديم للضمانات لهذا الفرد حتى يتمكن من ممارسة دوره المنوط به اجتماعيا.

4- الحضارة عبارة عن ضمانات إذا نظرنا إليها من هذه الوجهة، وهي ضمانات تتيح للطاقات الفردية والاجتماعية أن تنطلق وتمكن الفرد من التطور ماديا ومعنويا.

5- أن الحضارة عبارة عن أطوار اجتماعية يمر بها المجتمع، وفي هذا إشارة إلى الظاهرة الدورية التي تمر بها الحضارة.

عناصر قيام الحضارة:

---

[1]- مالك ابن نبي : آفاق جزائرية، مكتبة عمار القاهرة، مصر 1971،ص38.

[2]- مالك ابن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا 1988، ص42.

1 – التاريخ (الزمن): الحضارة سواء أكانت قوية أم ضعيفة فهي بحاجة إلى السنين أي الزمن، لكي تظهر بشكل واضح، وإليك مثال عن الارتباط الواضح القوي بين التاريخ والحضارة وليكن هذا المثال من الحضارة الرومانية. ففيما يتعلق بالنظام السياسي الروماني الذي يعتبر بحق أحد المميزات الرئيسية لها، نجده قد مر بثلاث مراحل زمنية قبل أن يصل إلى ما وصل إليه من التقدم.

أ – فمن المرحلة الأولى والتي كانت خلالها روما عبارة عن مجموعة متواضعة من الأكواخ المتواضعة. وقد استغرقت هذه المرحلة فترة من الزمن انتقلت بعدها إلى مرحلة أخرى هي:

ب– مرحلة الملكية (النظام الملكي): بمؤسساته الواضحة: الملك والمجلس الاستشاري ومجلس الشعب، وهذا يعني أن الرومان تدرجوا في التنظيم الاجتماعي والسياسي لوضع حكومة مدنية على فترات ومنية (تاريخية)مختلفة قد تطول وقد تقصر، حتى وصلوا بعد ذلك إلى الجمهورية (النظام الجمهوري) وكان ذلك مع فاتحة القرن الخامس قبل الميلاد..الانتقال من :الهمجية إلى الملكية إلى الجمهورية يحتاج إلى زمن.

2– الإنسان: ويذكر هنا كعنصر رئيس لأنه الكائن الوحيد الذي صنع حضارة بما أودِع فيه من خصائص فهو لم يصنع الحضارة بعقله فقط، بل يضاف إليه عامل التاريخ –فقد احتاج الإنسان آلاف السنين ليرتقي بعقله– وتركيبه العضوي وخصائصه البدنية والذهنية التي وفرت له سبل اكتشاف فوائد كثيرة في أشياء متعددة في بيئته.

3– المادة (التراب).

عوامل قيام الحضارة:

1 – الجنس: يذهب القائلون بهذا الرأي إلى أن هناك أجناس قادرون على صنع الحضارة وأجناس غير قادرين، ومثال ذلك المدرسة الأفلاطونية التي نظرت إلى الإنسان من زاوية عنصرية، فقسمت البشر إلى صنفين: أ– يونان عاقلين.ب– برابرة متوحشين.

وذهبت هذه المدرسة إلى أن الطبيعة وهبت اليونانيين عقلا ممتازا، أما غيرهم فهم مجردون من العقول وعليهم خدمة هذا الصنف الممتاز. وسار أرسطو على سنن أفلاطون فيقول أن الله خلق فصيلين من الناس الأولى زودها بالعقل والإرادة وهي فصيلة اليونان وفطرها على هذا التكوين الكامل لتكون خليفته في أرضه وسيدة على سائر خلقه. والثانية لم يزودها إلا بقوى الجسم وهؤلاء هم البرابرة، أي ما عدا اليونان من البشر.

2 – البيئة(الموقع الجغرافي، المناخ، التربة): فالمنطقة الجغرافية ذات المناخ المعتدل تساعد الإنسان على التقدم أكثر من البيئة الحارة، والمنطقة الباردة تحفز على العمل وتنشّط على السعي

أكثر من السابقتين،وهذا الرأي ثبت صدقه من خلال النتائج المترتبة وليس من ناحية منطقيته.(لاحظ الآن الفرق بين الشمال(الغرب) والجنوب(العب وأفريقيا).

3 – الاستقرار: لا يمكن قيام حضارة إلى إذا استقر شعب في مكان محدد وهذا الاستقرار يكون مرتبطا بالعوامل الجيولوجية والنفسية والاقتصادية، فالاستقرار يتطلب موقعا استراتجيا من الناحية الأمنية والتجارية و الاقتصادية ليستطيع الإنسان أن يمارس شؤون حياته.

4 – الحكم المنظّم: يرتبط نشوء الحضارة بجهاز سياسي واقتصادي واجتماعي وفكري وثقافي من الحكم مهما كان شكله(الدولة) له سلطانه فاعلياته في التأثير على تنسيق وترتيب نشاطات الأفراد وتدبير شؤونهم العامة وعلاقاتهم بالمجتمعات والأمم والشعوب والدول الأخرى.

5– التحدي (المعاناة):الحضارة تقوم نتيجة نوع من التفاعل بين الإنسان والطبيعة في صراعه على الحياة والبقاء والرفاه، أي نتيجة التحدي والاستجابة أو الفعل ورد الفعل .

مظاهر الحضارة:

1 – المظاهر السياسية (نظام الحكم)

2 – المظاهر الاقتصادية الأدوات والآلات المخترعة)

3 – المظاهر الاجتماعية (الأسرة)

4 – المظاهر الدينية (مظاهر العبادة)

5 – المظاهر الفكرية متعددة منها(اللغة والكتابة)